لمحة شعرية

عن حقوق الإنسان في العصر الجاهلي

A Brief Synopsis on Human Rights in Pre-Islamic Poetry

د. أحمد فيصل خليل البحر

Ahmad Faisal Khalil

الألوكة

www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لمحةٌ شعرية عن حقوق الإنسان في العصر الجاهلي

A Brief Synopsis on Human Rights in Pre-Islamic Poetry

د. احمد فيصل خليل البحر
دكتوراة في الادب المقارن الحديث (الادب وحقوق الانسان)
تدريسي في جامعة يورك (المملكة المتحدة)
Dr Ahmed F Khaleel
ahmed.khaleel@york.ac.uk

موجز: الهدف من هذه الدراسة تقديم لمحة موجزة عن مفهوم الحقوق في عصر ماقبل الاسلام أو ما يعرف بالعصر الجاهلي, في إطار التعريف بالحقوق من وجهة نظر إنسانية ثقافية-تعددية تهدف الى العودة بمفهوم حقوق الانسان الى جذوره بعيدا عن الاطار الشمولي الغربي المفروض عالميا ضمن إطار القانون الدولي. فالدراسة رغم بساطتها تقدم ادلة واضحة على التباين الكبير في فهم الحقوق وتفسيرها وتطبيقها عبر الثقافات المختلفة بل وحتى ضمن الثقافة الواحدة على مر العصور.

كلمات مفتاحية: حقوق الانسان, الشعر الجاهلي, عالمية الحقوق, التعددية الثقافية, حق الحياة , حق الشرف والمجد

تمهيد:

لحقوق الإنسان ومفاهيمها اليوم, في ظل القانون الدولي, إطارٌ شمولي عالمي Universal and comprehensive جعل من تلك المفاهيم والقيم مبادئ تلتزم بتطبيقها تلك الدول التي أقرتها وتدافع عنها اليوم, وتحرص على أن تحترمها, كما تجتهد وتسعى أو تدعي وتزعم, دولٌ أخرى ومنها الدول العربية. وقبل الولوج في سرد موجز لوضع حقوق الانسان في عصر ما قبل الاسلام في سياق هذه المعالجة البسيطة, فإن الإشارة مقتضاةٌ لحقيقة أن مبادئ حقوق الانسان اليوم في اطارها القانوني الدولي ظهرت عقب الحرب العالمية الثانية في عام 1948 وكانت ولا تزال منذ يومئذٍ تعرف بالاعلان العالمي لحقوق الانسان, والتي مهد لظهورها بهذا الشكل إرهاصاتٌ ودوافع .. فمن الارهاصات مثلاً إعلان الحريات الأربع Four Freedoms للرئيس الأمريكي فرانكلين روزفيلت في السادس من يناير عام 1941, والتي ضمنها في خطابه انذاك وكانت كالتالي: حرية التعبير وحرية العبادة والتحرر من الفاقة والتحرر من الخوف. ومن الدوافع ظهور النازية وارتكابها لجرائم وانتهاكات غير مسبوقة لحقوق الانسان. وكلاهما شكلا أسبابا ملحة إقتضت الضرورة معها أن يتم تفعيل حقوق الانسان وحمايتها والدفاع عنها قانونياً

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعالمياً, خصوصا بعدما خلفته الحربان العالميتان الأولى والثانية من قتل ودمار و ركود اقتصادي وفساد واستغلال وعنف وإرهاب.

و تجدر الإشارة هنا الى أن حقوق الانسان اليوم تستظل بمظلة غربية وترتدي معطفاً وقبعة من صنع الغرب أيضاً رغم كونها مبادئ عالمية لاحدود لها. وقد كثرت الإدعاءات في أصل حقوق الانسان: فقائلٌ أن مرجعها لقوانين حمورابي, وقائلٌ ان جذورها وجدت في التوراة أو الانجيل, واخر يجزم بأن أول براعمها ظهرت في قوانين الإغريق والرومان, وكذا الحال مع مبادئ الثورة الفرنسية ومن قبلها مبادئ الإسلام. والذي لا شك فيه أن حقوق الانسان وجدت في كل ما ذُكر انفاً لكن المهم ليس أصلها وأول من فكر فيها وأوجدها إنما ما مدى أثرها وشموليتها. فالمشكلة مع حقوق الانسان في وضعها الحالي تكمن في هاتين النقطتين.. خصوصاً مفهوم الشمولية والعالمية. ومن منطلق الجدل حول هذا المفهوم لإبراز مواطن الخلل فيه سيكون البحث في مفاهيم الحقوق في الشعر الجاهلي مربط الفرس ومفحص القطاة.

إن قضية وجود الاختلافات الثقافية وأثرها في صياغة الفهم وعدم الفهم أو سوء الفهم ما بين الشعوب والأمم قضية معروفة وليست حقوق الانسان بمعزل عن أثر هذه الاختلافات في تحجيم شموليتها المفروضة ضمن القانون الدولي. ويذكر لنا ميشلين أيشاي Micheline Ishay في سياق بحثه عن هذه القضية, أن الاختلافات الثقافية قد تنتج لنا فهما معاكسا لأمر واحد:

> يمكننا تتبع قضية الاختلافات الثقافية لنجد أن لها جذورا عميقة في التاريخ, كما يظهر لنا من كلام المؤرخ هيرودوتس قبل الفي سنة في جدليته حول عدم وجود نظام قيم اخلاقي عالمي. وللتوضيح قام المؤرخ بذكر مثال على ذلك من قصة للملك الفارسي داريوس. وهذا الأخير التقى بوفد من الاغريق اتى لزيارته في بلاطه, وسألهم إذا كان بإمكانهم أكل جثث ابائهم بعد موتهم مقابل مبلغ كبير من المال! فأثار ذلك غضبهم وأوضحوا للملك ان هذا فعل بربري لايمكن القيام به تحت أي ظرف, موضحين للملك أن إكرام الميت , حسب اعرافهم , حرق جثته. ثم كان ان استدعى الملك الفارسي بعض

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الهنود , وكانوا حسب عُرفهم يأكلون جثث موتاهم, وسألهم أن يحرقوا جثث ابائهم مقابل المال فغضبوا غضبا شديدا معلنين أن حرق الميت عمل شائن. والقصد من هذا المثال .. كما يذكر هيرودوتس , ان كل أمة ترى اعرافها وتقاليدها هي الأفضل.[1]

وهذا مثالٌ واضح على اهمية الاخذ بعين الاعتبار فهم حقوق الانسان عبر الثقافات. وقد يسأل سائلٌ في سياق هذا الطرح: ماعلاقة حقوق الانسان بالأدب؟ ولأول وهلة تبدو العلاقة بعيدة الرجع كعلاقة السياسة بعلف الخيل! ومادام الكلام يدور عن عالمية مبادئ حقوق الانسان من المنظور الانساني كونه أحد أوجه الاختلاف مع المظلة القانونية للحقوق, فإن الشعر بوصفه مراة ثقافية cultural mirror كما يعرفه الشاعر دبليو إتش أودن[2], ووصفه بأنه أكثر الاداب إنسانيةَ وأقلها دنيويةَ "the most human and the least wordly of the arts" كما ذكرت هانا ارندت[3] Hannah Arendt فالعلاقة , على مايبدو, بين السياسة وعلف الخيل علاقة منطقية على اعتبار أن سائس الخيل والسياسي يجمعهما جذر الكلمة (ساس) وكلاهما يسوس.. مع الاخذ بعين الاعتبار نوع الفئة المستهدفة من تلك السياسة.

ويجدر التنويه في هذا المقام الى أن إستعراض حقوق الانسان في شعر العصر الجاهلي في هذه السطور يرمي بالدرجة الأساس الى إعادة تقييم المبادئ في ظل الاختلافات الثقافية تقييماً يعود به الى جذوره الانسانية التي ترتكز على تفسيره وفق الادراك المتباين تبعا للتباين الثقافي بين الشعوب. ومن هذا المنطلق تبرز الحاجة الى الإقرار بتلك الاختلافات وأهميتها من حيث كونها تقف عائقاً في طريق تقبل مفهوم عالمي لحقوق الانسان تم نسجه وصياغة مفرداته التي تختلف في اكثر تفاصيلها مع مفاهيم أخرى اقليمية ومحلية لحقوق الانسان.

[1] Micheline Ishay, "What are Human Rights? Six Historical Controversies," *Journal of Human Rights* 3, no.3 (2010): 364.
[2] W. H. Auden, "Poetry, Poets, and Taste," in Auden and Mendelson, *The English Auden*, 359.
[3] Hannah Arendt, *The Human Condition* (Chicago: The University of Chicago Press, 1998), 169.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحقوق والحريات الأساسية في العصر الجاهلي:

لو نظرنا الى العصر الجاهلي نظرة متخصص في حقوق الانسان لعرفناه على انه عصرٌ بدائي خلا من نظام الدولة المدنية, يتثمل تكوينه الاجتماعي في قبائل ذات تكوين طبقي يبدأ من القاع بالعبيد والإماء ثم بأفراد القبيلة وصولا الى الذروة في النظام الاجتماعي والتي تتكون من السادة. وهو مجتمع قائم بالأساس على سلب الحقوق لا حمايتها وضمانها, كما يعبر لنا زهير بن أبي سُلمى في معلقته بقوله (ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يُهدَّم / ومن لايظلم الناس يُظلِم). فهو مجتمع قائم بشكل عام على قانونين , وكلاهما ينتهك الحقوق والحريات الأساسية , وهما قانون القوة وقانون الفوارق الطبقية. ولسبر أغوار طبيعة حقوق الانسان أكثر فأكثر , لابد من الورود على دوحة الشعر فيه, خصوصا المعلقات لنرى هل من مناقب وسط هذه المثالب؟

و يذكر الزوزني في كتابه "شرح المعلقات العشر" أن من أهم خصائص شعر العصر الجاهلي أنه صورة صادقة لحياة العرب الاجتماعية, صدر عن نفس الشاعر , وخلا من التقليد , وابتعد عن التكلف , وهذا نتيجة الحياة البدوية فكلما كانت الحياة ساذجة لا تكلف فيها ولا تعقيد , كلما كان الشعر ساذجاً صادقاً قريبا من الطبيعة الخشنة التي يحيا فيها ..[4] من هنا ندرك أننا أمام نصوص لا تكلف فيها ولا تصنع , وخصوصا في تصويرها لوقائع ومجريات الحياة اليومية, التي لم تخرج بعيدا عن حدود صحراء شبه الجزيرة العربية بل ظلت محدودة جغرافيا وثقافيا ولولا تلك النصوص ما عرفنا عن طبيعة تلك الحياة شيء. والشعر هنا, بعيدا عن أغراض الغزل والتشبب والبكاء على الاطلال , يعمل عمل الأدلة والوثائق التي يستند عليها المدافعون عن حقوق الانسان في كتابة تقاريرهم عن أوضاع الحقوق في هذا البلد أو ذاك كما يجري الحال في أيامنا. ومن أهم تلك الوثائق وأكثرها مصداقية المعلقات. وسأحاول هنا أن أبرز تعرض الشعر الجاهلي للحقوق الأساسية كما تبينها المعلقات. وللوهلة الأولى قد يبدو استعراض تلك الحقوق للقارئ غريبا بعض الشيئ لاختلاف المسميات تبعا للتباين الثقافي.

[4] الزوزني. شرح المعلقات العشر مع مقدمة لتاريخ ومكانة أصحاب المعلقات (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة, 1983), 7.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

1: حق بذل العون والنصرة:

كما هو معروف في أدبيات حقوق الانسان, فإن حق الحياة right to life هو الأول والأهم ولا حق قبله. و يقضي بأن لكل انسان الحق في الحفاظ على حياته ولا يجوز انتهاك هذا الحق بإزهاق تلك الحياة. وهذا لا يختلف على أهميته اثنان على وجه الأرض, إلا أننا نجد في شعر العصر الجاهلي حقاً اخر يزاحمه في الأهمية بل ويتفوق عليه أحياناً الا وهو حق الشرف والمجد. ويمكن تعريفه بأن لكل إنسان الحق في الدفاع عن كرامته و شرفه والذود عنهما , وقد أضفت كلمة "مجد" هنا للدلالة على أن تعريف هذا الحق يختلف عن التعريف المنصوص عليه في الاعلان العالمي لحقوق الانسان لحق أساسي اخر وهو حق الكرامة right to dignity , وهذا الأخير يقضي بأن لكل انسان الحق في حفظ كرامته ضمن مبادئ العدل والمساواة بين البشر. وهو ما سنتطرق اليه لاحقا.

وقبل الشروع في سرد الحقوق المذكورة في الشعر وماهيتها عند العرب قبل الاسلام, تقتضي الضرورة أيضا تبيان حقيقة أن مفاهيم حقوق الانسان رغم استنادها على الغطاء القانوني تبقى منقوصة دون الغطاء الانساني. وهذا الاخير يبقى مرتهناً بمدى اعتناق المجتمع للقيم الانسانية والاخلاقية السلوكية واحترامه لها كقيمة التعايش السلمي والتكافل وإعانة المحتاج والمتضرر وكف الأذى والايثار وغيرها من القيم التي تندرج ضمن مفهوم المسؤولية الاجتماعية.

وفي مجتمع العصر الجاهلي الذي يبدوا لأول وهلة مجتمعاً قبلياً رجعيا ومتخلفاً, فإن لحق الشرف والمجد فيه مكانته الخاصة: فهو يعد الحق الأساس الذي تندرج تحت عبائته كثير من الحقوق والمسؤوليات ومن ضمنها حق الحياة. كما أنه يعد , كما تبين لنا النصوص الشعرية التي سنذكرها لاحقا, صمام الامان الاجتماعي الذي لولاه لما كان لقيم المروءة والشجاعة والكرم والإيثار والصدق عند العرب مكان. وبسبب مكانة ذلك الحق أصبحت تلك القيم عناوين تميز ملامح المجتمع الجاهلي وحقوقا يجتهد المرء في طلبها أيما جهد, ونبدأ في تسليط الضوء عليها بطرفة بن العبد وقوله:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني / عُنيت فلم أكسل ولم أتبلدِ

.....

ولستُ بحلال التلاع مخافة / ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فإن تبغني في حلقة القوم تلقني / وإن تلتمسني في الحوانيت تصطد

وإن يلتق الحي الجميعُ تلاقني / الى ذروة البيت الشريف المصمد.[5]

هنا نلاحظ فخراً في النسب يسبقه ويردفه تفاخر في الفعل.. خصوصاً وأنه دائم العون لقومه والأهم أنه غير متهرب من المسؤولية فتراه يخبر من يبحث عنه أين يجده. وفوق هذا وذاك فإن طرفة بن العبد يتغنى وبصريح القول بأهمية هذه المسؤولية دون حق الحياة:

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى / وجدك لم أحفل متى قام عوِّدي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة / كميتٍ متى ما تُعلَ بالماء تزبد

وكري اذا نادى المُضاف محنباً / كسيد الغضا نبهته المتوردِ

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب / ببهكنة تحت الخباء المعمد

من هذه الابيات يتبين لنا أن حق الحياة مرتبط بمتعة الشاعر ولذته الشخصية في الشرب والجماع غير مكترث للعواذل, ثم بانتفاضته لنصرة الخائف المستغيث به من عدوه. ولولا هذا وذاك لم يكن ليأبه متى

[5] التلاع ما انخفض عن الجبال وارتفع عن منسوب السيل من الارض, ويقصد طرفة هنا حسب قول الزوزني أنه لا يحل بالتلاع مخافة حلول الاضياف به أو غزو الاعداء له ولكن لأعانة قومه في قرى الاضياف أو غزو الاعداء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يموت وكيف ! ومثلما أن المتعة الشخصية حق طبيعي مكفول فإن نصرة الخائف المستغيث لدى العرب هنا حق طبيعي أيضاً وليست واجبا مفروضا أو مستحباً وحسب.. ونحن هنا امام مجتمع ليس للامبالي وعديم النخوة و المسؤولية و الغيرة فيه مكان.

2: حق بذل الثروة:

وعلى عكس ما جُبلت عليه مفاهيم حقوق الانسان المعاصرة أو تلك التي ظهرت أيام الثورة الفرنسية أو في كتابات توماس باين Thomas Paine وإيمانويل كانت Immanuel Kant وغيرهم فإن الحقوق في العصر الجاهلي تنبع من الواجبات وليس العكس. فالمعروف أن حق الحياة على سبيل المثال يدفع بالمرء المطالب به الى أن يطلب حقوقا أخرى كالمال والثروة وملذات العيش من طعام و سكن ومركب.. وهذه كلها حقوق فردية individual rights تقع في دائرة حق الحياة وتؤدي بالمرء وهو يجتهد في تحصيلها , إن لم يكن جاهداً في تحصيل أفضلها, الى أن يكون جشعا وأنانيا و منتهكا حقوق غيره وظالما وقد يكون أيضا لصا سارقا أو طاغية سفاحاً في سبيل تحصيل تلك الحقوق على حساب غيره غير مبال بهم. ولست أزعم هنا أن هذا لم يكن موجودا في عصر ما قبل الاسلام.. إنما أود أن أوضح هنا أن طلب الحقوق ادى الى حصول انتهاكات وجب معها تفعيل الواجبات بوازع انساني واخلاقي. اما في عصر ما قبل الاسلام فإن الواجبات قامت مقام الحقوق, فالكرم حق وليس واجبا فقط, واغاثة الملهوف وإجارة الخائف والذود عن الحمى والعرض وغير ذلك. كل هذه كانت حقوقا يطالب بها الناس ضمن سعيهم للتمتع باكتساب حق الشرف والمجد ولم تكن واجبات مرتهنة بضمير الانسان وشعوره بالمسؤولية فقط. بل وفوق هذا وذاك, لايمكن للمرء في ظل مثل هذا المجتمع ان يتكاسل أو يتقاعس عن هذه الواجبات وإلا فإنه يكون قد انتهك حقه في الشرف والمجد بيده وضاع منه الى الأبد. والموت في هذا المقام أهون عليه من ذلك.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهنا يتبادر الى أذهاننا صدى الأبيات الجميلة لزهير بن أبي سُلمى في مدح كبشين عظيمين من العرب هما الحارث بن عوف وهرم بن سنان, وليس ذلك لشيئ سوى أنهما بذلا جُل ثروتهما في الاصلاح بين حيين متحاربين من أحياء العرب كادا يفنيان بعضهما البعض:

يميناً لنعم السيدان وجدتما / على كل حال من سحيل ومبرم

تداركتما عبساً وذبيان بعدما / تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما: إن ندرك السلم واسعا / بمال ومعروف من القول نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن / بعيدين فيها من عقوق ومأثم

عظيمين في عُليا معدٍ هُديتما / ومن يستبح كنزا من المجد يعظُم

وهنا فإن هذا الفعل قد أوقف انتهاكا صارخا لحقوق الانسان. والحروب , محلية كانت أم عالمية , كلها تعني انتهاكا لجملة من الحقوق وأهمها حق الحياة. والأهم من هذا أن التدخل لأحلال السلام جاء بفعل فردي وهذا من أبرز ما يميز وضع حقوق الانسان في العصر الجاهلي. فالمتعارف عليه أن حقوق الانسان تشريعات والتزامات تفرضها الحكومة على نفسها وعلى المجتمع, وعادة ما تحصل الانتهاكات بخروقات فردية كجرائم القتل والسرقة والرشوة.. إنما الحالة لدينا في العصر الجاهلي أن الأفراد , في ظل غياب الحكومة والقانون , يعملون عمل الحامي للحقوق وما ذلك إلا بسبب رغبة أولئك الأفراد في الاحتفاظ بحق الشرف والمجد. ولا ننسى هنا دور الشاعر في إحراز حق الشرف والمجد بلسانه. فهو في العصر الجاهلي ليس شاعرا وحسب بل وزيراً للثقافة والاعلام والتربية واحيانا لحقوق الانسان والقانون أيضاً .. كما تبين لنا ابيات زهير التالية:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه / يفره ومن لايتق الشتم يُشتم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله / على قومه يُستغن عنه ويذمم

ومن يوفً لا يذمم ومن يُهدً قلبه / الى مطمئن البر لا يتجمجم

هذه الأبيات تعطينا لمحة عن بعض القوانين السائدة في العصر الجاهلي والتي لها ارتباط بحقوق الانسان كونها تمس الحياة اليومية وعلاقة الناس ببعضهم البعض ضمن المجتمع. وهي في الحقيقة ليست قوانين وإنما مُثل وقيم أخلاقية حولها الشاعر , عبر صياغتها في أبيات, الى قانون ملزم.. فنحن هنا امام مجتمع يكاد يصدق فيه قول الشاعر الانجليزي بيرسي شيلي Shelley عندما قال قولته الشهيرة عام 1821 في أن الشعراء مشرعون غير مُعترفِ بهم في هذا العالم "poets are the unacknowledged legislators of the world"[6]، إلا أننا في هذا الموقف نرى الشاعر وقد أصبح مشرعاً مُعترفا به .. وهذه منقبة أخرى من مناقب حق الشرف: فهذا الحق منح لحق حرية التعبير استحقاقه كاملا دون تدخل أو منع يفرضه حق الحياة. فعادة ما يؤدي الحفاظ على الحق في الحياة الى هدر حرية التعبير خوف الموت. وعوداً على قوانين العصر الجاهلي المنصوصة في الشعر , فإنه من المثير للأهتمام أن الأفراد ألزموا أنفسهم بتلك القيم والمُثل فجعلوا منها قوانين في ظل مجتمع اللادولة. فالفرد الذي يسعى لعمل المعروف والخير بيده وماله يحظى بمكانة مرموقة في المجتمع علاوة على سلامته من الاعتداء بالشتم وغيره, ومن لا يبادر لعمل الخير والمعروف يُنبذ ويُستغنى عنه ويصبح مذموما في المجتمع .. وهذا قانون نافذٌ على الجميع ولا يستثني احداً , وليس هذا لشيئ إلا لحيازة الشرف والمجد.. وهنا نحن أمام مجتمع ليس فيه للبخيل والممسك يده عن مساعدة الناس مكان..

[6] Martín Espada, *The Lover of a Subversive is Also a Subversive: Essays and Commentaries* (Michigan: The University of Michigan Press, 2010), 87.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

3- حق التعفف و الإيثار:

وفي مجتمع كمجتمع عصر ما قبل الاسلام, يخلو من نظام الدولة المشرعة للقوانين والحامية الكافلة للحقوق , فإنه من الطبيعي أن تختفي منه كثير من مفاهيم حقوق الانسان المرتبطة بنظام الدولة المدنية وأهمها الحقوق الإيجابية positive rights والحقوق السلبية negative rights , و هذا الأخير يعني أن تكفل الدولة حقوق مواطنيها بعدم الاعتداء عليهم واضطهادهم وسجنهم وكبتهم وتقييد حرياتهم في التعبير والتنقل الخ .. بينما يُقصد بالحقوق الإيجابية أن تؤمن الدولة لمواطنيها حقوقهم المدنية عبر منحها لهم حق التصويت في الانتخابات والدفاع عنهم وتقديم العون والإغاثة لهم وقت الحاجة. وكلا المفهومان يكمل أحدهما الاخر (منع ومنح) وهذان الحقان يمثلان نوعاً من الإيثار تقدمه الدولة لرعاياها لضمان حماية الحقوق الأساسية كالمساواة والعدل .. أما أن نجد مثل هذا النظام في مجتمع بلا دولة , فإنه أمر ينبغي الوقوف عنده والتمعن فيه. وهذا فحلٌ اخر من فحول الشعر الجاهلي وفارس ورجل نبيل وهو لبيد بن أبي ربيعة يفاخر بشراء جزور من صلب ماله لا عن طريق المقامرة , ليذبحها ويفرق لحمها الجيد الطري على الجيران والفقراء:

وجزورِ أيسارِ دعوت لحتفها / بمغالقٍ متشابهِ أجسامها

أدعوا بهن لعاقرٍ أو مُطفلٍ / بُذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الجنيب كأنما / هبطا تبالة مخصباً أهضامها

تأوي الى الأطناب كل رذية / مثل البلية قالصٍ أهدامها

.....

ومقسمٍ يعطي العشيرة حقها / ومغذمرٌ لحقوقها هضامها

فضلا وذو كرم يعين على الندى / سمحٌ كسوب رغائب غنامها

من معشر سنت لهم اباؤهم / ولكل قوم سنة وإمامها

لا يطبعون ولا يبور فعالهم / إذ لا يميل مع الهوى أحلامها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هنا نجد تطبيقاً عمليا للحقوق السلبية والايجابية على مستوى الفرد لا الدولة.. وليت الأمر يقف عند توزيع لبيد اللحم على المحتاجين والضيوف والجيران بل نراه وهو يتعهد بتوفير الحماية والملجأ الامن لهم. وأنه , كونه رأس من رؤوس عشيرته, يُلزم نفسه بضمان حقوق الاخرين على حساب حقوقه الشخصية ثم يعطف على ذلك كله بالقول أن كل ما يفعله من المعروف سنةٌ وقانون مُلزم يمنع الانسان من الميل الى دونه فيعمل بما يهوى .. والسبب أن كل فعل يؤدي الى انتهاك حق الشرف والمجد , وهو الحق الأهم , مرفوض لأنه بانتهاكه تسقط أهمية الحق في الحياة والعيش كما يؤكد ذلك عمرو بن كلثوم: (ورثنا المجد قد علمت معدٌ / نطاعن دونه حتى يبينا).. وهذا إقرار صريح بأن حق المجد أهم من حق الحياة. ورغم ما تحوي قصيدته من تصريح بانتهاكات للحقوق من قتل وسلب وغيره من عادة المجتمع الجاهلي , إلا أنه يؤكد أن هذا الانتهاك حق ينتزعه ممن أراد انتهاك حقه في المجد والشرف بإيذاءه والنيل منه (نجذُ رؤوسهم في غير بر / فما يدرون ماذا يتقونا), أي لمن اعتدى عليهم ولم يمد لهم يده ببر ومعروف. ويستطرد ابن كلثوم في هذا الشأن فيقول: (نعُمُ أُناسنا ونعُفُ عنهم / ونحمل عنهمُ ما حمَّلونا).. أي أنه وقومه يغدقون على الناس ويذودون عنهم متى ما استغاثوا بهم (حق إيجابي) ويعفون عن أموالهم وأملاكهم فلا يقربونها (حق سلبي).

4: حق التحرر من الظلم والاستعباد:

وهذا الحق معروف في كل مكان وزمان , تقر وتعترف به أغلب شعوب الأرض على تعدد ثقافاتهم ومشاربهم ولا لبس في هذا, إنما يكمن الاختلاف في تحديد درجة الظلم وأيها يسترعي دق نواقيس الخطر والانذار بانتهاك صارخ لحق أساسي من حقوق الانسان, وكيف يكون رد الفعل تبعاً لنوع الانتهاك؟ وكلنا يقرأ بيت عمرو بن كلثوم في ذيل معلقته الشهيرة: (إذا ما الملك سام الناس خسفاً / أبينا أن نقر الذل فينا).. وهذا كلامٌ لا خلاف عليه ولو قرأه المدافعون عن حقوق الانسان في الغرب لمنحوا ابن كلثوم لقب المدافع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عن حقوق الانسان وجعلوه عضوا في منظمة Human Rights Watch. لكنهم لو علموا أنه رد على محاولة الملك عمرو بن هند النيل منه عبر سؤال أم الملك لأمه أن تخدمها بمناولتها طبق طعامٍ بقتله شر قتلة لترددوا في منحه اللقب إن لم يقيموا عليه دعوى في المحكمة الجنائية الدولية. إنما القضية تختلف لدى عمرو بن كلثوم لأن بن هند أراد هتك الحق الأهم والأغلى من بين حقوق الانسان العربي الاساسية ألا وهو حق الشرف والكرامة. وحق الكرامة المنصوص عليه في الاعلان العالمي لحقوق الانسان يرتكز على مبدأ المساواة وحق العيش الكريم دون إذلال وخوف واضطهاد وتقييد للحريات , لكنه لا يصل الى مستوى أعلى من المستوى الذي يبلغه حق الحياة في الترتيب بل هو مترتب عليه. أما في المجتمع الجاهلي فإن حق الكرامة مترتب على حق الشرف والمجد , وهنا يتبين لنا بأن هذا الحق يعلو على حق الحياة في الترتيب من حيث الأهمية.

وبما أننا ذكرنا كيف يفسر السادة من العرب الاستعباد والظلم , فيجدر بنا أن نعرج على العبيد منهم. وهنا تبرز لدينا حالة إستثنائية لعبدٍ شاعر وفارس في ذات الوقت. فعنترة بن شداد العبسي قاسى الأمرين من ظلم السادة للعبيد في المجتمع الجاهلي, بدأ من رفض أبيه إلحاقه بنسبه كون والدته أمَةٌ حبشية.. مروراً باستهزاء الناس به بسبب لون بشرته. وهنا نراه في هذا المقام وهو يصف لأبنة عمه عبلة, سجيته في رفض الظلم رغم كونه رجلٌ سمح.. ثم يعطف على قضية شتمه والاستهزاء بلونه وأصله من بعض خصومه:

أثني علي بما علمتٍ فإنني / سمحٌ مخالقتي إذا لم أُظلمِ

وإذا ظُلمت فإن ظلمي باسلٌ / مرٌ مذاقته كطعم العلقمِ

.....

ولقد خشيتُ بأن أموت ولم تدر / للحرب دائرة على ابني ضمضم

الشاتمي عرضي ولم أشتمهما / والناذرين اذا لم القهما دمي

إن يفعلا فلقد تركت أباهما / جزر السباع وكل نسر قشعم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هنا يصف عنترة رد الظلم بالظلم انتصافا عادلا مستحقا له , من باب ان رد الظلم بالظلم عدلٌ وأن البادئ أظلم .. لكن نلاحظ من البيت الأخير والبيت الذي يسبقه أن عنترة ينشد العدل في المعاملة أكثر من غيره من الشعراء. فزهير بن أبي سُلمى , على سبيل المثال , يصرح بأهم قوانين الجاهلية المعادية للحقوق بقوله: (ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه / يُهدَّم ومن لايظلم الناس يُظلم) , ويحذو عمرو بن كلثوم حذوه في هذا الكلام بقوله: (ألا لا يجهلن أحدٌ علينا / فنجهل فوق جهل الجاهلينا), ثم يعود فيصف بالتفصيل طبيعة ظلمه للظالم:

ونحن التاركون لما سخطنا / ونحن الاخذون اذا رضينا

ونشرب إن وردنا الماء صفوا / ويشرب غيرنا كدرا وطينا

وهذه مجاوزة في الظلم الى ظلم أكبر واعظم وهو ما يؤدي الى انتهاكات أفضع لحقوق الانسان في المجتمع. لكن عنترة رغم وصفه لظلمه بالمر , ذكر سماحته قبل ذلك .. وقبل البيت الأخير يذكر بالتفصيل شتم خصومه لعرضه وكأنه يبرر أو يعتذر عن إيقاع ظلم مماثل بهما أو أشد. ثم , وفي البيت الاخير , يذكر أنه انتصف لنفسه بقتل أبيهما .. لكنه جاوز وصف القتل الى وصف اخر مثير للاهتمام وهو ترك غريمه طعاما للكواسر والجوارح وفي هذا البيت الأخير يلخص عنترة لنا بإنه لم يظلم وإنما انتصف لنفسه ولكل العبيد من أولئك السادة الذين ينعمون بينما يرزح العبيد تحت وطأة العمل المنهك والمذل في مناخ قاس وبيئة لا ترحم. فكان أن ترك هذا السيد الذي طالما نَعِم بالظل والراحة وطيب المأكل والمشرب فريسة للحيوانات والطيور .. وهذا من وجهة نظر عنترة إنتقام مجزٍ من الاستعباد. ولنا صورة أخرى أوضح وأجلى للبصر والبصيرة من شعر عنترة أيضاَ:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحليل غانية تركتُ مجدلا / تمكو فريصته كشدق الأعلم

سبقت يداي له بعاجل طعنة / ورشاش نافذة كلون العندم

هلا سألتِ الخيل يابنة مالك / إن كنتِ جاهلة بما لم تعلمي

.....

يخبرك من شهد الوقيعة أنني / أغشى الوغى وأعف عند المغنم

.....

ومدجج كره الكماة نزاله / لا ممعنٍ هربا ولا مستسلم

جادت له كفي بعاجل طعنة / بمثقف صدق الكعوب مقوم

فشككت بالرمح الاصم ثيابه / ليس الكريم على القنا بمحرم

وتركته جزر السباع ينشنه / يقضمن حسن بنانه والمعصم

في هذه الأبيات ثلاث صور , أوسطها خطاب عنترة لابنة عمه وحبيبته , والذي يعلمها فيه عن بعض شمائله الكريمة في أنه شجاع يغشى المعارك لا طلبا للغنائم فهو عفيفٌ يعرض عنها زهدا فيها اذا ما أصبحت مستباحة له.. وفي هذا أيضا رفعة في النفس يريد بها أن يسمو على مجتمع السادة فيعرفوه بتلك الخصال أكثر من رغبته أن تعرف ابنة عمه بها. أما الصورتان التي قبلها والتي تليها, فالاولى قتله لرجل من طبقة السادة , ذا زوجة جميلة حسناء , بطعنة قوية جعلت دماءه النبيلة تتدفق بغزارة .. والثانية قتله لفارس قوي مدجج بالسلاح ثم التمثيل به. وفي كلا الصورتين نلاحظ عدم ذكر عنترة أسماء هذين الرجلين خلاف ما فعله غيره كعمرو بن كلثوم الذي ذكر عمرو بن هند صراحة من باب التشهير بقتله لرجل عظيم وشهير. فعنترة , رغم كونه قد اكتسب حريته بسيفه , لم يزل يعاني ويقاسي الأمرين من عنصرية اللون والطبقية الاجتماعية ولذا فهو لم يكن ينتصف لنفسه من الاستعباد بقتل أشخاص بعينهم بل بقتل الاستعباد نفسه والانتقام من ظلم الطبقية والعنصرية الإثنية.. فلم يذكر الاسماء بل الأوصاف .. خصوصا قتله لزوج الحسناء , ومثلها لاترتبط بعبد بل ولاتفكر حتى بالارتباط به ولذا قتل زوجها السيد الذي اختارته دون

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العبد , وكذلك تمزيقه للثياب الغالية لذلك الفارس (فشككت بالرمح الأصم ثيابه) وهو هنا ينتقم من كل ما يتباهى به السادة أمام العراة المحرومين من العبيد , بل ونراه يتمادى في انتهاك الحرمات التي فرضها مجتمع السادة على العبيد .. فيتعدى لمس السيد الذي يخشى العبيد النظر اليه الى التمثيل به مصرحا بقوله (ليس الكريم على القنا بمحرم).. ثم بتركه فريسة للوحوش يأكلون لحمه الطري ويده الناعمة التي لم تتشقق وتخشن من العمل الشاق (يقضمن حسن بنانه والمعصم). وهنا , من خلال هذه الابيات الرائعة في تصويرها السينمائي, تتجسد لنا حقيقة العلاقة بين طبقتي السادة والعبيد في مجتمع العصر الجاهلي ووظيفة عنترة بعد ان أصبح حرا كانت استرداد حقه في الشرف والكرامة ولو كلفه ذلك هدر حقه في الحياة.

خاتمة:

إن الناظر في الشعر الجاهلي و المتأمل في معانيه يرى أن المجتمع في ذلك العصر كان قائما على أعراف وتقاليد بالية ظهرت بفعل عوامل عديدة كالبيئة الصحراوية القاسية المجدبة التي فرضت عليهم شرعة السلب والنهب وقتل الأولاد خشية الإملاق , والاقتتال على الماء والكلأ وكل هذا للحفاظ على الحق الأهم من حيث الترتيب في قائمة الاعلان العالمي لحقوق الانسان وهو حق الحياة والعيش. ولو كان هذا الحق هو الأهم في المجتمع الجاهلي بلا منازع لما رأينا فيه أثرا يُذكر من فعل خيرٍ أو أداء معروف , بل ولما ظهر الإسلام فيهم أصلا. لذلك فإن تقدير ذلك المجتمع لقيمة الشرف ذلك التقدير العالي الذي جعل منه حقاً يعلو على حق الحياة أدى الى خلق حالة من التوازن. لأن كل ماياندرج تحت مظلة الشرف والمجد من عمل المعروف والاصلاح بين الناس واغاثة الملهوف واكرام الضيف ونصرة المظلوم ليست , في الحقيقة , سوى واجبات وفروض أخلاقية لكنها في المجتمع الجاهلي كانت حقوقاً فرعية واجبة التفعيل كونها تؤدي الى الحفاظ على حق الشرف والمجد . وهو حق فريد من نوعه , قابل للزيادة وغير قابل للنقصان.. فالتقصير فيه غير وارد مطلقا , حتى لو اضطر المرء الى التضحية بحقه في الحياة للحفاظ عليه, وهو حق لا يموت بموت الانسان بل يتيح له التمتع به حتى بعد موته بالذكر الطيب .. ولنا أن نقول, على سبيل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المثال, أن الحارث بن عوف وهرم بن سنان لا يزالان الى يومنا هذا يتمتعان بفوائد إحرازهم لهذا الحق. وهذا مصداق لقول النبي صلى الله عليه واله: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق", وإتمامها جاء بوضعها في إطار قانوني شرعي ملزم للجميع على أساس يضمن العدل والمساواة ويلغي منطق التعامل بالمفهوم الطبقي والسلطوي في إطار دولة مدنية. وكان من الاتمام ايضا ضرورة القضاء على الأعراف السلبية السائدة واهمها الطبقية والتعامل بمنطق القوة. فاما إلغاء التعامل بمنطق الفوارق الطبقية (سادة وعبيد) فقد تجسدت تجليات المفهوم الاسلامي للحقوق في التعامل معها في قول الفاروق رضي الله عنه "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا" .. وكذلك تظهر لنا تجليات الاسلام في التعامل مع منطق القوة في قول الصديق رضي الله عنه لما تولى الخلافة " الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله".

هذا الاستعراض الموجز لطبيعة مفردات حقوق الانسان وطريقة فهمها والتعاطي معها في عصر ما قبل الاسلام ليس الهدف منه الاكتفاء بالسرد والتحليل فقط , إنما يُراد منه تبيان أهمية الاختلافات الثقافية الخاصة بهذا المجتمع أو ذاك ودورها في بلورة فهمِ وإدراكِ خصوصيين للحقوق سواء في المطالبة بها او الدفاع عنها. وهذا يسترعي وجوب إعادة النظر في عالمية مفردات حقوق الانسان وكونها تلائم كل الثقافات من حيث الترتيب في الاولوية وكذلك من حيث تفسير تلك المفردات وتطبيقها. ومع ان هذه السطور تعنى بحقوق الانسان في العصر الجاهلي لا الحاضر , إلا ان الكثير من المجتمعات المحلية في العالم العربي, وخصوصا المجتمعات البدوية والريفية والقبلية , لا يزال حق الشرف والكرامة أهم من حق الحياة.[7] ولايكمن الخطأ في هذا , إنما في طريقة التعامل مع هذا التباين في الأولوية والذي يسلك للأسف , في كثير من الاحيان , مسلك الجاهلية الأولى لا الاسلام الذي أبطل في حالات عديدة مبدأ إهدار حق الحياة بإهدار حق الشرف ليخلق توازنا في معطيات المطالبة بالحقوق والدفاع عنها. فالقصاص بالمثل والعفو مقدم عليه.

[7] اليوم وفي ظل الظروف والتحديات الراهنة حلت الكرامة محل المجد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قائمة المراجع:

الزوزني. شرح المعلقات العشر مع مقدمة لتاريخ ومكانة أصحاب المعلقات (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة, 1983)

Al-Maʿūsh, Sālim. *Shiʿr as-Sujūn fī Al-Adab Al-Ḥadīth Wa Al-Muʿāṣir*. Beirut Dar al-Nahdha al-Arabiya, 2003.

Arendt, Hannah. *The Human Condition.* Chicago: University of Chicago Press, 1970.

Espada, Martín. *The Lover of a Subversive is Also a Subversive: Essays and Commentaries* Michigan: The University of Michigan Press, 2010.

Gready, Paul. "Responsibility to the Story." *Journal of Human Rights Practice* 2, no. 2 (June, 2010): 177-190.

Ishay, Micheline. "What are Human Rights? Six Historical Controversies." *Journal of Human Rights* 3, no. 3 (August 2010): 359-371.

Mendelson, Edward, ed., *The English Auden: Poems, Essays and Dramatic writings 1927-1939*. London: Faber and Faber, 1977.